منصفة المفضل النكري
دراسة في التصوير الفني

د.نصرة أحميد الزبيدي
قسم اللغة العربية / كلية التربية للبنات / جامعة الأنبار

المقدمة

لا شك في إن شعر الحرب في عصر ما قبل الإسلام قد احتل مساحة واسعة منه نظرا لكثرة الحروب والمواجهات التي حفل بها تاريخ العرب في شبه الجزيرة العربية والتي كانت فيها الحرب مفردة ذات أبعاد ودلالات تختلف كليا عنها في أي مكان على الأرض بحكم طبيعة العلاقات الاجتماعية وروابط النسب التي تربط القبائل العربية عموما فكانت ابعد ما تكون عن السمة العدائية المدمرة ولا تتجاوز كونها واجهة للخلافات التي يفرضها الاحتكاك وصراع البشر حول أسباب البقاء في بيئة الصحراء القاسية ورغم ذلك أفرزت الحروب تراثا أخلاقيا وأدبيا انتهى إلى بناء أسس التعامل السليم مع المتغيرات الحياتية التي تفرضها الظروف على البشر فكان ظهور المفاهيم ذات الأبعاد والدلالات الأخلاقية كالإيثار والمروءة والعفو عند القدرة وما سواها أحد النتائج الإيجابية التي رافقت تلك الحروب ، وفي موازاة الدمار الذي تجلبه أرست أسس الدعوة إلى السلام وتحقيقه بأي ثمن حين أدرك العرب أثارها الفادحة وعانوا منها فكان مبدأ الدية التي تدفع لذوي القتيل رادعا لمبدأ الثأر الذي يجر الويلات ويسبب استمرار نزيف الدم ،وكان الشعر حاضرا وبقوة في أثناء ذلك كله وكان من الطبيعي أن يتحقق التنوع الموضوعي في شعر الحرب تبعا لتنوع الدعوات والرؤى المصاحبة لها ومن ألوان ذلك التنوع ما اصطلح على تسميته بالمنصفات وهي قصائد حملت ملامح السمو الأخلاقي للفارس العربي فهو يسجل مزايا وقدرات خصمه ويشيد بشجاعته وباسه وان هذا الأنصاف هو السبب في تسميتها بالمنصفة أو لأنها كانت تقسم مناصفة بين الشاعر وخصمه ، ومن المنصفات التي احتلت مكانة مميزة منصفة النكري الذي سمي بسببها ب(المفضل) أو المفضل العبدي في أكثر المصادر نسبة إلى عبد القيس التي ينتمي إليها، وهي قصيدة جميلة امتازت بروعة البناء وجودة السبك كما إنها كانت صورة حية لتفاصيل المعركة التي افلح الشاعر في توصيلها إلى المتلقي بدقة وبراعة تنقل فيها بين جانبي الصراع موظفا الأدوات الفنية التي تخدم هدفه التصويري كالتشبيه الذي لم يخرج فيه عن المألوف من تشبيهات العرب إلا انه أضفى عليه رؤيته الخاصة التي تركز على الخصم لا بوصفه العدو بقدر كونه ذريعة للتغني بالفعل البطولي الذي أضفى على المعركة أجواء أسطورية في كل شيء ابتداء بالأفعال وانتهاء بالأشخاص من كلا الطرفين ،وقد حرصت الدراسة على تحليل الصور وبيان الملامح الفنية بالدرجة الأساس معتمدة على الدراسة الموضوعية والفنية لعموم شعر عبد القيس الذي جمعه د.عبد الحميد المعيني الذي افرد حيزا قليلا لدراستها بحكم كثرة

الأشعار المجموعة والمدروسة واستقلت دراستنا للمنصفة عن تلك الدراسة من خلال التركيز على التحليل الفني وتتبع صور المعنى واحتمالاته القائمة بالدرجة الأساس والله الموفق.

التمهيد

١- الشاعر

هو المفضل النكري من عبد القيس وسمي مفضلا لان منصفه فضلته والنكري من قبيلة نكرة من عبد القيس والقصيدة مذكورة برقم(٦٩) في الأصمعيات(١) ونقل ابن سلام إن اسمه المفضل بن معشر بن أسحم بن عدي بن شيبان بن سويد بن عذرة بن منبهة بن نكرة من عبد القيس وفضلته قصيدته التي يقال لها المنصفة (٢) وذكر كل من الخالديان في الأشباه والنظائر والبصري في حماسته إن اسمه عامر بن معشر بن أسحم بن عدي (٣) وهو من الشعراء الذين لم يتركوا شعرا كثيرا إذ لم يروى له غير هذه المنصفة وبيت مفرد إذا ما سلمنا إن ما ذكر له من شعر ضمن ديوان عبد القيس هو كل ما قاله فعلا من شعر والمنصفة بروايتين من حيث عدد الأبيات فهي ٣٩ كما نقل جامع الديوان عن الأصمعي وغيره وانفرد الأخفش بإضافة ثلاثة أبيات في الاختيارين*

وتأمل القصيدة المنصفة يؤكد الإمكانية العالية التي يمتاز بها هذا الشاعر ويرجح أن يكون له شعر كثير ضائع مثلما توحي السمات البنائية الفنية وجود عنصر الخبرة والتجربة الشعرية ثم إن البيت المفرد الذي رواه له جامع الديوان يرجح وجود أبيات أخرى وفيه يقول:

ودسناهم بالخيل من كل جانب كما جرد الجارود بكر بن وائل

والبيت نفسه يبدو جزءا من قصيدة حرب تروي وقائع محددة لمعركة ما وحتى الأبيات التي أضافها الأخفش في روايته تدفع باتجاه هذا الافتراض وعموما فمصطلح(فضلته) الذي استخدمه الأصمعي وغيره يدلل هو الآخر على إن له شعرا غير المروي له في الديوان طالما انه عد من شعراء المنصفات.

٢-المنصفات

لقد كانت الحياة العربية قبل الإسلام خاضعة لمعايير البيئة التي احتضنتها ، تلك البيئة القاسية التي فرضت نمطا خاصا من العيش يكفل استمرارية البقاء فإزاء الجفاف والامتداد الهائل للصحراء وقف الإنسان وحيدا إلا من تلك الإرادة التي منحته القوة على المطاولة فكان ديدن البحث الدائم عن الماء ومواطن الكلأ دافعا للترحال الدائم الأمر الذي حول المكان في ذاكرة العربي إلى مفردة مميزة لأنه كان دائم التبدل فكان البحث عن بقاياه وآثاره مجسدا للتوق الأزلي للاستقرار الذي تفتقده الحياة وكان الوقوف على الطلل ملمحا نفسي الأبعاد أكثر من كونه وقوفا مجردا،ثم ان فلسفة الغزو التي قام عليها مبدأ البقاء كانت أمرا حيويا يرمي

إلى تحقيق هدفين أساسيين يتمثل أولهما بتوفير الحماية والثاني تعزيز المخزون المادي الذي يمثل ضمانة حيوية عند وقوع الجفاف والقحط الذي كان من غير الممكن منعه وحين تلتقي تلك الفلسفة التي أصبحت عادة حياتية ضرورية عند العربي مع التقاليد والأعراف التي كانت بدورها حصيلة سنين طويلة من العلاقات المتشابكة بين تجمعات قبلية تفرقها الأماكن وتقرب بينها الأنساب والأحلاف تلك الصلات ذات الغور العميق في تاريخ الوجود العربي على الأرض يصبح نتاج ذلك كله ظهور القيم الأساسية التي تنظم العلاقة بين القبائل والقبائل مثلما تمتد لتنظيم علاقة الفرد بغيره فلم يكن بدعا من الأمر شيوع عادات الكرم والإيثار والنخوة وما سواها من حميد الخصال بقدر ما كان ضرورة لتحقيق استقرار من نمط خاص يتغلب على حالة اللااستقرار المكان التي عاشها الإنسان وبالنسبة لمصطلح (المنصفة)المأخوذ من الإنصاف فهو امتداد للظواهر الفنية التي رافقت الوجود الإنساني (فالإنصاف) قديم والفارس العربي منصف في أشعاره وأقواله ،انه لا يفخر بنفسه فحسب وإنما يسجل مفاخر عدوه ولا يظلمه في بسالته وشجاعته ومن هنا اهتم الرواة بالشعر المنصف وأشادوا به وذكروا الأشعار المنصفة وأصحابها)(٤)

ويقول عبد المعين الملوحي إن المنصفات قصائد يرى فيها الشعراء أنفسهم وقبائلهم كما يرون عدوهم إلى درجة قد يكون فيها البيت الواحد نصفين أو ربما كانت القصيدة نصفين الأول للشاعر وقبيلته والثاني في أعدائه وهو ثلاثة أنواع:

إنصاف في الحرب.

إنصاف في الصلات الاجتماعية.

إنصاف في النواحي الخلقية.(٥)

وفي واقع الأمر ان الدافع الأساسي وراء الإنصاف يمكن ان يندرج في اتجاهين محتملين يمكن أن يكونا أسبابا لظهوره وهما:

الأول: ما يتعلق بمستلزمات الفخر بوصفه فنا برع فيه العربي ،فصورة الفارس الشجاع لا تكتمل إلا بوجود خصم قوي وعلى درجة من البأس والمنعة يكون معها للنصر عليه نكهة خاصة على نحو ما نرى في أشعار عنترة وغيره.

الثاني: إن الإنصاف يحمل في طياته اعترافا حقيقيا بقدرات الآخر وهو أمر واقعي يفرضه مبدأ التكافؤ في القوة طالما إن الإمكانيات وأدوات الحرب وعدتها كانت واحدة عند الجميع وطالما إن مبدأ الكثرة والقلة كان يمكن التغلب عليه من خلال الأحلاف وهي مسالة شائعة في المجتمع العربي القديم.

وعموما فإننا نميل إلى الاعتقاد بان أية قصيدة قديمة في الفخر لم تكن تخلو من الإنصاف بشكل أو بآخر وبالمعنى الذي أشرنا إليه.

وبالنسبة لمنصفة المفضل النكري التي نروم دراستها هنا فقد عدت من المنصفات التي فضلت صاحبها كما أسلفنا ويرى د.المعيني أنها تاريخ كبير وسجل هام للحرب التي دارت بين العبديين واللجيميين وقد ذكر المنصفة في طليعة شعر عبد القيس في الجاهلية متحدثا عن بعض ملامحها وموضوعها باختصار(٦) وقد حاولت هذه الدراسة التركيز على المنصفة ودراستها فنيا وأسلوبيا بشكل معمق وتبيان المعاني الداخلية من خلال قراءة فنية تتلمس النواحي الجمالية في الوصف والتصوير الذي برع الشاعر فيهما وهو يتمثل البيئة التي ظهر تأثيرها واضحا من خلال تضمين رموزها لاسيما في التشبيهات التي عكست بدورها دقة في الملاحظة وميلا إلى الإسهاب والتعمق في رسم الصور.

التحليل الفني

يقع النص في تسعة وثلاثين بيتا وفق اكثر الرايات كما تقدم ويبدأ بمقدمة غزلية يتصدرها السؤال الموجه إلى مخاطب غير محدد قد يكون الزمن الذي يتحدى الإنسان بديمومة تأتي على كل شيء بدءا بالإنسان ذاته مرورا بالأشياء والأحوال التي لا تستمر على منوال واحد والنية المشار إليها هنا تشير الى الهدف الذي اختلف سعي الطرفين إليه وربما كان أعداء اليوم حلفاء ألامس لانه يشير إليهم ب(جيرتنا) ممهدا لموضوع القصيدة فيقول(٧)

ألم تر إن جيراننا استقلوا فنيتنا ونيتهم فريق

فدمعي لؤلؤ سلس عراه يخر على المهاوي ما يلق

عدت ما رمت إذ شحطت سليمى وأنت لذكرها طرب مشوق

فودعها وان كانت أناة مبتلة لها خلق أنيق

تلهي المرء بالحدثان لهوا وتحدجه كما حدج المطيق

وفي البيت الثاني وظف الشاعر التشبيه ليعكس حالة الحزن الشديد الذي اعتراه مشبها قطرات الدمع المنسكب بحبات اللؤلؤ الذي يسقط متتابعا غير منقطع ولامحتبس والمح الشاعر هنا إلى معنى محدد فبدلا من أن يصف دموعه بصورة تجعلها تسيل او تجري او ما سوى ذلك من الألفاظ الدالة على الغزارة في البكاء عمد إلى استخدام ذلك المشبه به ليعكس قلة الدمع التي ينبغي أن تكون متناسبة مع غرض الفخر ووصف شجاعة القوم في الأبيات اللاحقة ثم انه يتسلى عن هذا الهم الذي يمثل صبابة لا تجدي مستخدما(عدت) أي تجاوزت تلك المرأة التي رحل أهلها ما تطلب في محاولة لنقل أجواء القصيدة إلى آفاق ارحب فلا يطول به المقام في تذكر أمور تثير حسرة في النفس وهو مقبل على موضوع الحرب ، وسليمى التي ابتعدت عنه تتجاوز كونها الحبيبة الراحلة إلى مفاهيم (السلامة والسلم) الذي يعكسه الاسم تلك الأمور التي بدت بعيدة بعد أن استقل الفرقاء وتباعدوا،

وقوله(فودعها) استخدم صيغة الأمر للنفس بترك المرأة/الواقع الماضي مع إنها كانت بصفات تغري بملازمتها فهي حليمة وفاترة في نهوضها دلالة على إنها مخدومة لا تضطر إلى النهوض بسرعة لشؤونها وهي تامة الخلق طيبة.

يهيئ القصيدة للانفتاح على الغرض الأساس وحين يأمر نفسه بوداع تلك المرأة المحمودة الخصال فانه يقف في مواجهة الرغبة الشديدة للبقاء معها ويبرر تلك المواجهة بأنها تصرفه عن المضي في إدراك ما لابد من إدراكه من غايات أسمى ويؤكد قوة العزم في ذلك المسعى باستخدام التشبيه وبصورة غير مباشرة فالمرأة الملهية تسيطر عليه بصورة كبيرة وتحمله وطأة صراع داخلي فهي (تحدجه)أي تغلبه بدلها وحديثها مثلما يغلب الحمل الثقيل البعير ،والتكلف والشدة هما وجه الشبه بين الطرفين ولقد احسن في اختيار البعير مشبها به لا لكونه رمزا قريب المأخذ بحكم وجوده المألوف فحسب بل لانه يمثل الرمز الأنسب للتحمل فسماه(مطيقا)من أطاق الشيء يطيقه أي تحمله(٨)

وبعد أن كان غائبا يعود المخاطب غير المحدد إلى الظهور ثانية فيقول(٩)

فانك لو رأيت غداة جئنا ببطن اثال ضاحية نسوق

فداء خالتي لبني حيي خصوصا يوم كس القوم روق

فغداة تلك الحرب التي يروم الحديث عنها ذكر انهم ساقوا الجياد علانية إلى ساحة القتال وربما قاده عروض البيت إلى هذا التفصيل ،ويستغرب تفسير شارح الديوان مفردة (ضاحية) بعلانية لان من معانيها أن يقال ضاحية الشيء ناحيته البارزة مثلما إن من معاني(ضحا) الأضحية وهي الشاة التي تذبح ويحتمل البيت على ذلك معنيين: إننا نسوق ضحايا الحرب من الأسرى وعلى ذلك يكون معنى ضاحية الأضحية واضطره لذلك إيقاع البيت وتفعيلته بدليل قوله(نسوق)التي توحي بالإكراه.

ان يكون معنى(ضاحية) البارزة وهنا تكون بمعنى خيل بارزة للعيان نؤكد بها استعدادنا للقتال وتهيئة عدته.

وفي قوله(فداء)أي يفتدي هؤلاء الفرسان على صنائعهم لاسيما في يوم ابلوا فيه البلاء الحسن وكنى عنها بمعنى خاص وهو التكشير عن الأنياب التي لم تكن بارزة قبل اليوم استعدادا للحرب،ثم يقول: (١٠)

هم صبروا وصبرهم تليد على العزاء اذ بلغ المضيق

وهم دفعوا المنية فاستقلت دراكا بعدما كادت تحيق

تلاقينا بغيبة ذي طريف وبعضهم على بعض حنيق

فجاؤا عارضا بردا وجئنا كسيل العرض ضاق به الطريق

مشينا شطرهم ومشوا إلينا وقلنا اليوم ما تقضي الحقوق

وهم صابرون معروفون يعزون أنفسهم به إن ضاقت عليهم السبل مثلما درءوا أنفسهم عن الموت والدمار الذي تجلبه الحروب فابتعدت أخطارها عنهم بعد أن كادت أن تكون واقعة لا محالة وفي ذلك إشارة إلى أحد أمرين إما إيثار السلم عن منعة واما امتلاك أسباب النصر .

ولقد أكد هول المعركة القادمة باشتعال الغل والغضب في صدور القوم بعضهم على بعض وكان طبيعيا أن يمجد الشاعر خصال القوة في خصمه ليبدو فعله آلاتي بطوليا بمستوى المواجهة الصعبة فشبهه بالعارض أي السحاب المحمل بالبرد وهو اشد السحاب مطرا وتدميرا إلا انه يشبه قومه في الكثرة بالسيل الذي يجتاح ساحة المعركة، وفي استعانته برموز الطبيعة تأكيد لتفاعله معها واستلهامه لها مثلما هو توظيف مناسب يخدم الفكرة التي يروم إيصالها وتبدو في هذا البيت ملامح الإنصاف فقد أعطى العدو حقه من الإشادة لابل انه ذكر احسن أوصافه وستستمر تلك الإشادة في مواضع كثيرة لاحقة مع انه قد قصر في وصف العدو بالسحاب ووصف قومه بالسيل لان الأخير إنما يتولد من المطر الغزير الذي تحمله السحاب مما ينتقص من شان قومه! ثم إن ما ذهب إليه الشارح من أن (ما)هنا جاءت زائدة فيه نظر وانما هي اقرب إلى أن تكون موصولة ليصبح المعنى: هذا هو اليوم الذي تقضى فيه الحقوق بين المتقارعين و يريد بالحقوق الديون والثارات أو إن استحقاقات القوة هي التي ستقضي بين الطرفين .

ثم تبدأ تفاصيل المعركة التي يصفها بالقول: (١١)

رمينا في وجوههم برشق تغص به الحناجر والحلوق

فقوله(في وجوههم) يعكس الشجاعة والإقدام في المواجهة مثلما هو إنصاف للعدو الذي يقبل بوجهه على المعركة غير متردد ولا خائف وقوله(تغص به) عكس كثافة النبل المرمية في وجه العدو فتغص بها الحلوق إشارة إلى السرعة والكثرة لان الغصة لا تنتج إلا عن الكثرة فاستعارها لوصف الأمر.

ومن أروع صور التشبيه ما جاء في قوله: (١٢)

كأن النبل بينهم جـــــراد تكفيه شآمـــــــية خريق

فقد شبه النبل بالجراد الذي تدفعه الرياح الشامية الباردة الشديدة الهبوب وهو ادعى لسرعته وخفته وهي الملامح التي ترافق صورة الجراد عادة ولايقف التشبيه عند الملمح الشكلي والمعنى الظاهر هنا بل يتجاوزه إلى ما توحي به مفردة الجراد المشبه به من معاني الخراب ولطالما تشاءمت به العرب بسبب آثاره المدمرة وما قصة النابغة الذبياني مع زبان بن سيار إلا مثل لذلك فحين أرادا المضي لامر تراجع النابغة متشائما بعد ان رأى جرادة حطت على رحله (١٣)

أما في قوله: (١٤)

وبسل ان ترى فيهم كميا كبا ليديه الا فيه فوق

يهزهز صعدة جرداء فيها سنان الموت او قرن محيق

فقد انصف عدوه ثانية فلا ترى فارسا منهم يقع إلا بضربة قاتلة فهم يقعون على الأرض مكرهين بسبب الإصابة ولا ينكفئون اتقاء للسهام التي ترشقهم ،أما في البيت اللاحق فيعطف الكلام على ما سبقه ففارسه يحمل بيده رمحا مستويا اجرد كناية عن طول الاستخدام فهم أهل حرب وفي راس هذا الرمح حربة حادة او قرن ثور وكانت العرب تجعل قرون الثيران أسنة للرماح .

ويمعن الشاعر في تفصيل الصورة بالمزيد من الوصف المعمق بكل جزئياتها فالأغصان التي تصنع منها القسي مختارة من أجود ما يمكن أن يصنع منه سهم فالسدر شجر ضعيف الغصن لا يصلح أما النبع فهو مناسب لقوة أغصانه وهو يومئ إلى عنصر الخبرة هنا والذي يؤكد بدوره طول المراس في الحرب وإلا فما الذي يمكن أن يدفعه إلى هذا التفصيل وهو يصف المعركة ؟ يقول: (١٥)

وجدنا السدر خوارا ضعيفا وكان النبع منبته وثيق

إن عدوا بتلك الأوصاف وحرب بتلك الضراوة يحتاج المرء معهما إلى عدة مناسبة تقوي باس الفرسان وبالتأكيد فان هذا الأسلوب في التعامل مع مفردات الحرب والسلاح مثلت اتجاها مميزا في أشعار الحرب العربية وكانت جزءا من الصورة التي جهد الشعراء إلى رسمها ،وبعد الحديث عن تلك التفاصيل يعرج الشاعر على ذكر فرسان العدو وموقع المعركة وأمورا أخرى كملت صورة الوصف عنده فيقول: (١٦)

لقينا الجهم ثعلبة بن سير اضر بمن يجمع او يسوق

لدى الأعلام من تلعات طفل ومنهم من أضج به الفروق

فحوط عن بني عمرو بن عوف وابناء العمور بها شفيق

فالفارس الذي واجهه قومه كان ثعلبة بن سيار الذي سماه جهما وهو الكالح الوجه لطول مراسه للحرب والصعاب وهو الذي جلب الضرر لقومه الذين جمعهم للحرب مع أحلافهم الذين ساقهم عنوة وكان موضع المعركة عند الجبال في حين تجمع أكثرهم عند نبع ماء اسمه الفروق ،ولا تتضح الصورة كثيرا بسبب تداخل التفاصيل المكانية ولا يتضح كذلك قول الشارح حين فسر قول الشاعر(بها شفيق) بما نصه(لقد استطاع ثعلبة أن يرعى بني عوف ووجد كذلك في أحياء العمور من شفق عليهم معتبرا إن معنى(حوطه) كلاه ورعاه(١٧) وهو معنى بعيد والأقرب إلى المعنى انه أحاط بهم أي حاصرهم وفرض عليهم محالفته بالقوة بدليل قوله في آخر البيت (بها شفيق) أي مشفق وخائف على نفسه، ويتابع سرد تلك التفاصيل الدقيقة فيقول: (١٨)

فالقينا الرماح وكان ضـــربا مقيل الـــــهام كل ما يذوق

وجاوزنا المنون بغير نكـس وخاظي الجـــلز ثعلبة دميق

كأن هزيزنا يوم التقيـــــــنا هزيز هباءة فـــــيها حريق

إن الطرفين قد استخدما الرماح القوية التي تطيح برؤوس المحاربين من كلا الطرفين وهو ملمح آخر للمنصفة التي تعرض بحياد آثار المعركة على الطرفين ومن ذلك يخلص الشاعر إلى استنباط حالة يثبت فيها شجاعة قومه الذين اجتازوا المنون بغير ضعف أو تردد أو خوف برماح قوية أحكمت صنعتها وتركيب أسنتها لتستجيب لقوة الفعل واستخدم التشبيه في تجسيد صورة الضرب فالرماح تهتز مدوية بصوت شديد عند تلاحمها بأيدي المتضاربين تشبه صوت احتكاك الأغصان وهي تتكسر محترقة وتلك صورة صوتية الملمح تثير في الذهن تخييلا لصوت الحريق وهو يلتهم الحطب مثلما تدلل على البراعة ودقة الملاحظة التي عكستها هذه الصورة،ثم يضيف إلى تلك الصورة صور المأساة التي انطوت ساحة المعركة على تفاصيلها حيث يقول: (١٩)

بكل قرارة وبكل ريـــــــع بنان فتـــــــى وجمجمة فليق

وكم من سيد منا ومنهـــــم بذي الطرفاء منـــطقه شهيق

بكل مجالة غادرت خرقـــا من الفتيان مبسمـــــــــه رقيق

فاشبعنا السباع واشبعوها فراحت كلها تئق تفـــــــــوق

تركنا العرج عاكفة عليهم وللغربان من شبع نغـــــــيق

لقد كان من نتائج القتال العنيف أن انتشرت الجماجم والأطراف المقطعة التي عكست شراسة المعركة على الأرض المنبسطة والجبال المرتفعة مؤكدا بذلك اتساع رقعة المعركة وتحقيق النصر في كل مكان وقع فيه احتراب كما صور الإعياء والتعب الذي أصاب الرجال ولقد احسن استخدام المفردات الدالة على المعاني المختلفة فكلمة (سيد) أشار بها إلى الفرسان الأشداء الكبار في السن والذين استبد بهم التعب إلى الدرجة التي يشهقون فيها عند الكلام ومن كلا الجانبين إنصافا لعدوه أولا وتعبيرا عن طول المعركة وشدتها ،ولقد أكد انه من هؤلاء إلا انه اثبت لنفسه ما ليس لغيره في واحدة من صور الفخر الشخصي فقد ترك فارسا كريما رقيق المبسم وضاح الثنايا كناية عن فتوته وقوته مقتولا في ساحة المعركة وقوله(خرقا) هنا قابل قوله(سيد) إشارة إلى الفئات العمرية التي شاركت في المعركة من كبار الفرسان المحنكين والشباب المندفعين بحماس، ولقد عاد الى صورة الفخر الجمعي ثانية راسما صورة مألوفة في الشعر العربي القديم وهي صورة الحيوانات المفترسة التي تظهر عادة في شعر الحرب بعد انقضاء المعارك بوصفها علامة دالة على حجم الدمار وكثرة القتلى فلقد شبعت من قتلى الفريقين وامتلأت بطونها وباتت تصدر أصواتا عند تنفسها بسبب التخمة التي أصابتها وتلك صورة

صوتية الملامح تثبت ثانية دقة الملاحظة وواقعية الصورة المستوحاة م واقع البيئة العربية ولقد أسهمت الصورة الصوتية في إضفاء جو من الحركة التي بددت ملامح السكون ذي الدلالات المأساوية لمشاهد ما بعد المعركة وتلك إحدى الميزات التي طبعت شعر الحرب القائم على الوصف أساسا وتستكمل الصورة أبعادها في منظر الضباع التي تأتى عادة بعد ان تغادر السباع وتأخذ مبتغاها لأنها اعتادت على ذلك وهو أمر احسن الشاعر ترتيب ملامحه ليكسب الصورة أبعادا واقعية تنم عن الملاحظة فالسباع الأقوى تكون الرمز الأول في توصيف ما بعد المعركة تليها الضباع واخيرا الغربان التي تصدر هي الأخرى أصواتا تنم عن الشبع وهو ما يعكس في مجمله أمرين:

الأول: كثرة جثث القتلى المتروكين في ساحة المعركة التي تؤكد ضراوتها.

الثاني: إن العدو قد فر هاربا وتاركا قتلاه خلفه نهبا للوحوش الضارية والغربان ثم إن ذلك يمثل وسيلة للانتقال إلى تفاصيل ثانية إذ إن نهاية القتال لاتعني نهاية الحكاية التي يسعى الشاعر إلى الحديث عن تفاصيلها فيندفع للكلام عن مشاهد ما بعد كل معركة من مظاهر العزاء التي جهد إلى الاستفادة منها قدر المستطاع وهو يتابع الإشادة بقومه فيقول: (٢٠)

فابكينا نسائهم وابكـــــــوا نســـــــاء ما يسوغ لهن ريق

يجاوبن النياح بكل فجـــــــر فقد صحلت من النوح الحلوق

فبكاء النسوة ومظاهر النواح والعويل يكمل صورة المعركة وتوابعها وكان الشاعر يريد الإشارة ضمنا إلى آثارها المدمرة ونتائجها المأساوية فنساء الفريقين بكت لرثاء القتلى غير إن نساء قبيلته اظهرن حزنا وتفجعا شديدا فلا يسوغ لهن أي شراب واستخدم مفردة (الريق) كناية عن الانقطاع عن الأكل والشرب واخطأ الشارح حين فسرها بقوله(ينزل بسهولة) ثم أكد استمرار حالة الحزن والحداد فالنسوة يتبادلن النواح والعويل منذ انبلاج الفجر إلى الدرجة التي تبح فيها الحناجر.

ولاينفك الشاعر يتحدث مرارا وتكرارا عن وقائع المعركة فيذكر صرعى العدو من الفرسان ليعادل صورة بكاء النسوة من قومه فيقول: (٢١)

قتلنا الحارث الوضاح منهم فخـــــــــر كان لمته العذوق
أصابته رماح بني حـــــيي فخر كأنه ســـــــــيف دلوق
وقد قتلوا به منا غلامـــــا كريما لم تؤشبه العـــــــروق

فقد ذكر أحد قتلى العدو وهو الحارث الوضاح من قواد لجيم ووصف سقوطه مشبها لمته بشماريخ النخل ثم عاود تشبيهه بالسيف(الدلوق) أي الذي يسهل خروجه من غمده لخفته وهو من أجود السيوف ومع ذلك فقد كان المقتول بهذا الفارس غلاما كريما صافي النسب، ويتمم وصفه بالحديث عن فارس آخر مستعينا هذه المرأة بصورة المرأة السائلة التي يعزز توظيفها هنا اندفاعه للإسهاب في الحديث عن المعركة والتفاصيل المتعلقة بها فيقول: (٢٢)

وسائلة بثعلبة بن سيـــــــر وقد أردت بثعلبة العلـــــوق
وأفلتنا بن قران جريضـــــا تمر به مساعفة حـــــــروق
تشق الأرض شائلة الذنابى وهاديها كأنه جذع سحـــوق
فلما استيقنوا بالصير منـــا تذكرت العشائر والحز يـــق
فأبقينا ولو شئنا تركنـــــا لجيما لا تقود ولا تســـــوق
وأنعمنا واباسنا عليهـــــم لنا في كل أبيات طليـــــــق

فرب سائلة عن هذا الفارس الذي انتهى الأمر به مقتولا والذي نجا بحياته كان فارسا آخر يدعى(ابن قران)من لجيم ووصفه بشدة الهم ،وقد ذكر الشارح أن معنى البيت والبيت الذي يليه ان ابن قران قد فر تحمله فرس مسرعة تحترق في عدوها وتشق الأرض رافعة ذنبها سرعتها الشديدة مشبها طول عنقها بجذع النخل ولا نظن إن الكلام هنا ينصرف إلى تلك الفرس بل إن الأرجح ان يكون الشاعر قد أراد وصف خيول قومه بدليل قوله(تمر به) ثم استخدام صيغة الجمع في (شائلة الذنابى) ولانه قال قبل ذلك (أفلتنا) ولم يقل افلت ، كما نقل الشارح الخلاف في قوله(سحوق) ففي الاختيارين للأخفش وردت بمعنى الفرس الطويل الاجرد في حين انه يرى إنها بمعنى جذع النخل ولا فرق كبير بين المعنيين طالما انه أراد وصف العنق بالطول..

ومن الطبيعي أن يحاول الشاعر الخروج من معمعة الوصف المفصل ويختار نهاية مناسبة للقصيدة فحين أدرك الأعداء بأس قومه وكثر فيهم القتل تذكر الجميع صلة النسب التي تجمع العشائر بدليل تأكيده انهم ابقوا على من نجا من القتل وتوقفوا عنه لاعن ضعف أو كلل بسبب طول المعركة بل إشفاقا وانهم لو استمروا لما بقي عند عدوهم من الفرسان من يقود خيلا إلى معركة ولا من يسوق إبلا وكان خاتمة فعالهم ان انعموا على الخصوم بالعفو إلى درجة كان فيها في كل بيت أسيرا مطلق السراح كناية عن كثرة الأسرى في المعركة.

الملامح الفنية والأسلوبية

لقد افلح الشاعر في بناء نص امتاز بجودة البناء الفني ونجح في توصيل رؤية الشاعر المنصف في مجريات الأحداث لحرب طاحنة بين ندين قويين مشهود لهما بالبأس وكن لأسلوبه هذا أثره في الخروج من دائرة الوصف المجرد لوقائع المعركة إلى عرض الحقائق بأسلوب فني راق افرز نصا امتاز بدقة الوصف الذي تخللته محاولات الشاعر لاقناع المتلقي بأفضلية قومه واستحقاقهم النصر مع التأكيد على قيمة هذا النصر من خلال عرض مزايا الخصم وعناصر قوته ،واستخدم في الوصف ألوانا مختلفة في مقدمتها التشبيه وهو المعرف بالدلالة على مشاركة الشيء لآخر في معنى أو وجه فاكثر من الوجوه (١١) وفي غرض الوصف تحديدا كمن فائدة الوصف في إثباته الخيال في النفس بمعنى المشبه به وصورته(١٢) وللتشبيه في الشعر العربي القديم وظيفة بنائية وجمالية كما انه يقرب الصورة المراد إيصالها إلى السامع وعادة ما تركز الصور الجديدة المرسومة في سياق النص على جانب من المعنى يربطها بالصورة المرئية وجه الشبه ولقد استخدم الشاعر في النص السابق التشبيه في ثمانية مواضع كان بعضها محسوسا كتشبيه الدمع باللؤلؤ وتشبيه الكثرة بالسيل والنبل بالجراد واللمة بالعذوق والعنق بجذع النخلة كما في الأبيات الثاني والحادي عشر والرابع عشر والحادي والثلاثون والسادس والثلاثون على التوالي في حين كان تشبيه خفة سقوط الفارس بالسيف الدلوق في البيت الثاني والثلاثون وقبله تشبيه غلبة المرأة له بدلها وحديثها وتحميله مالا يطيق بحال البعير المحمل فوق طاقته في البيت الخامس غير محسوسة تثير الخيال لأنها عبرت عن أحوال وليس عن رموز مادية وامتاز تشبيهه لصوت التحام المتقاتلين بصوت احتراق غابة من القصب بسمة صوتية وقد حمل إيقاعا يقرب صورة الالتحام واحسن استغلال هذا العنصر الموسيقي الذي يساهم في إبراز تأثير البنية الصوتية القائمة على الإيحاء في جانب منها(١٣) وتلك إحدى الميزات التي طبعت الشعر العربي وميزات اللغة نفسها إذ إن تكوين المعنى وتنويع أشكاله وألوانه يتناسب مع الطبيعة من جهة الصوت مثلما تحمل توافقا بين الصورة اللفظية والصورة المعنوية المقصودة(١٤)

وكثيرا ما اشار إلى شدة المعركة بأسلوب غير مباشر فالسباع التي أكلت حتى الشبع ثم الضباع التي عكفت على التهام البقايا ثم الغربان التي كملت صورة الخراب الذي حاق بالأعداء وقبل ذلك إشارته إلى كثرة المقاتلين الأعداء وشدة بأسهم مستعينا بالسحاب الذي يحمل المطر الشديد والبرد المهلك في وصفهم ومشبها قومه بالسيل العارم الذي يملأ الوديان كل تلك المظاهر أضفت لمحات فنية على الوصف الدقيق والمفصل للأحداث ولم يقف عند تلك الحدود بل مال إلى الحديث عن مجريات الحرب والإعداد لها فالسهام المهيأة للمعركة أحسنت صنعتها من أجود الأغصان وامتنها وعرج على وصف مظاهر التفجع والعزاء مستعينا هذه المرة بصورة النسوة الباكيات بلوعة مؤثرة ليكمل الصورة المأساوية وكأنه يلوح بالكره الدفين للحرب وآثارها المدمرة ، وجاء حديثه عن موقع المعركة مدعما بالصف الدقيق الذي درج عليه مسميا المواضع بأسمائها ليكون اكثر مصداقية في سرد الوقائع واخيرا وبعد انجلاء غبار

المعركة يذكر الشاعر بتلك المتعارفات الأخلاقية التي تشد مجتمع الصحراء بتأكيد مبدا العفو والركون إلى السلم وإيقاف القتال واستكمال ذلك المسعى بإطلاق الأسرى وكانت تلك خاتمة أكدت الموقف من الحرب وعكست الوعي بالآثار المدمرة التي رآها العرب عبر سنوات وجودهم الطويلة إذ لابد من النظر إلى المستقبل فالقتل لا يجر إلا القتل ولتتضح في خاتمة المطاف فلسفة الحرب من اجل البقاء وليس الحرب من اجل الحرب ذاتها .

القصيدة المنصفة

لا شك في أن القصيدة التي وصفها الأصمعي بأنها السبب في تفضيل شاعرها قد كانت منصفة مميزة حملت في ثناياها مبررات هذا التميز ولا نميل إلى موافقة د. عبد الحميد المعيني جامع ديوان عبد القيس فيما ذهب إليه من ان السبب في تسميتها بالمنصفة ينحصر في قوله :(١٥)

فالقينا الرماح وكان ضربا مقيل الهام كل ما يذوق

لان القصيدة حفلت بأبيات كثيرة انصف فيها الشاعر عدوه ويمكن تعداد تلك الأبيات بالجدول الآتي:

رقم البيت	السبب
١- الحادي عشر	شبه عدوه بالسحاب المهلك الشديد المطر وشبه قومه بالسيل كناية عن الكثرة.
٢-الثاني عشر	قوله(مشينا ومشوا) معادلا بين عزم الفريقين .
٣-الخامس والعشرون	لانه ساوى فرسان الطرفين في المعاناة من شدة المعركة فهم يشهقون في منطقهم.
٤-السابع والعشرون	جعل السباع تشبع من لحوم قتلى الطرفين (أشبعنا السباع وأشبعوها) ليؤكد سقوط القتلى من الطرفين.
٥-التاسع والعشرون	وصف بكاء نساء الطرفين مع انه اخطأ في بيان بكاء نسوة قومه لانه أوحى بمكانة الفرسان المقتولين في الحرب.
٦-الثاني والثلاثون	إقراره بفقدان فارس كريم النسب في مقابل قتل الحارث الوضاح .

الهوامش

١- الأصمعيات/ ١٩٩.

٢- ينظر طبقات فحول الشعراء ١٦١/٢.

٣- ينظر الخالديان ١٤٩/١ والحماسة البصرية٥٣/١.

*ينظر شعره في ديوان شعراء عبد القيس في العصر الجاهلي /٢٣٢ والذي اعتمدنا على دراسته هنا.

٤- نفسه/١٦٥.

٥- ينظر المنصفات –الملوحي المقدمة.

٦- شعراء عبد القيس/١٦٣.

٧- نفسه/٣٢٣.

٨- نفسه/٣٢٤.

٩- المصدر والصفحة نفسهما.

١٠-المصدر والصفحة نفسهما.

١١-المصدر والصفحة نفسهما.

١٢-نفسه/.٢٥٢

١٣-ينظر القصة وتفاصيلها في الطبيعة في الشعر الجاهلي/٢٦١ وما جاء من أمر تشاؤم العرب بالجراد.

١٤-شعراء عبد القيس/.٣٢٥

١٥-المصدر والصفحة نفسهما.

١٦-المصدر والصفحة نفسهما.

١٧-ينظر اللسان(حوط)

١٨-شعراء عبد القيس/.٣٢٦

١٩-المصدر والصفحة نفسهما.

٢٠-نفسه/.٣٢٧

٢١-المصدر والصفحة نفسهما.

٢٢-نفسه /٣٢٧-.٣٢٨

٢٣-ينظر علم أساليب البيان/.٩٤

٢٤-ينظر المثل السائر١٢٤/٢ والتصوير البياني /.١٥٦

٢٥-نظرية البنائية في النقد الأدبي/.٤٧٢

٢٦-ينظر فقه اللغة وخصائص العربية/.٢٦٣

٢٧-شعراء عبد القيس/٣٢٦ الهامش.

المصادر

١- الأشباه والنظائر –الخالديان: ابو بكر محمد(ت٣٨٠هـ)وأبو عثمان سعيد(ت٣٩١هـ)-تح: عمر يوسف- لجنة التأليف والنشر-القاهرة-١٩٥٨.

٢- الاصمعيات-الأصمعي،عبد الملك بن قريب(ت٢١٦هـ)-تح: احمد محمد شاكر وعبد السلام هارون-دار المعارف-ط٢- مصر- ١٩٦٤.

٣- التصوير البياني-د.حنفي محمد مشرف-مكتبة الشباب-القاهرة- ١٩٧٠.

٤- الحماسة البصرية-البصري،صدر الدين بن ابي الفرج بن الحسين(ت٦٥٩هـ)-تح: مختار الدين احمد- وزارة المعارف-١٩٦٤.

٥- شعراء عبد القيس في العصر الجاهلي-جمع وتحقيق ودراسة: د.عبد الحميد المعيني-مؤسسة جائزة عبد العزيز البابطين للإبداع للشعري- الكويت-٢٠٠٢.

٦- طبقات فحول الشعراء-ابن سلام الجمحي(ت٢٣١هـ)-تح: محمود شاكر-دار المعارف- القاهرة-١٩٥٢.

٧- الطبيعة في الشعر الجاهلي-د.نوري حمودي القيسي-مطبعة عالم الكتب-ط٢-بيروت-١٩٨٤.

٨- علم أساليب البيان-د.غازي يموت-الأصالة للطباعة –ط١-بيروت-١٩٨٣.

٩- فقه اللغة وخصائص العربية-محمد المبارك-دار الفكر الحديث-ط٢- بيروت-١٩٦٤.

١٠-لسان العرب –ابن منظور: أبو الفضل جال الدين محمد بن مكرم(ت٧١١هـ)- دار صادر- بيروت.

١١-المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر- ضياء الدين ابن الأثير(ت٥١٨هـ) تح: د.بدوي طبانة-ط٢-دار الرفاعي- الرياض-.١٩٨٤

١٢-المنصفات-عبد المعين الملوحي-مطابع وزارة الثقافة والسياحة- دمشق ١٩٦٧.

١٣-نظرية البنائية في النقد الأدبي-د.صلاح فضل-دار الشؤون الثقافية العامة- بغداد-١٩٨٧.